مصائر البعث السوداني في حياة شخصيتين: بدر الدين مدثر (2 من 2)

سياسي وعملي حتى النخاع كرّس اهتمامه للآخرين وظل الحزب حياته الحقيقية اليومية

المؤسس الحقيقي لبعث السودان.. كان رمز مرحلة صعوده وغناه وفي مرضه كان رمزا لمرحلة انحساره

عبد العزيزحسين الصاوي*

منذ يوم 25 كانون الثاني (يناير) الماضي الذي شهد رحيل بدر الدين مدثر، يسأل صاحبنا نفسه فجر كل يوم جديد: كيف يمر مثل هذا الحدث و لايتحرك ساكن قلمه بحرف واحد و الصلة بالفقيد رفقة عمر، و الاهم من ذلك، له موقعه في الحياة السودانية و العربية العامة ضمن صيغة حزبية تشاركا فيها طويلا؟... لعل صاحبنا ظل يتوقع رد فعل مشابه لوفاة صديق ـ رفيق اخر قبل اعوام عديدة. صاحبنا كان قابل النبأ بما يشبه عدم الاكتراث و كأن عبد الله محمد عبد الرحمن لم يكن اول من استجاب لصرخة الولادة التي اطلقها تيار العروبة السياسية في جامعة الخرطوم اوائل الستينيات. غداة صدور اول عدد من جريدة «الرائد» الحائطية ظهر عبد الله في حجرة بداخلية سوباط كان صاحبنا يتقاسمها مع شريكه في اصدار الصحيفة محجوب الشيخ البشير (توفي اوائل السبعينيات)، عارضا خدماته دون معرفة سابقة.

كل من عرف عبد الله احبه فقد كان تجسيدا لمعنى كلمة انسان، تهش له القلوب من أول وهلة. كل ساعات يومه ونبضات فؤاده مكرسة للاخرين شأنا عاما وافرادا مدفوعا بمزاج رومانتيكي صوفي المنحى. وعندما اضحى عبد الله بعد ذلك ضمن مجموعات البعثيين الاولى ترسخت مكانته في وجدان صاحبنا. مع ذلك بقي نبأ وفاته في خاطره اسابيع دون ان يبدو عليه انه سمع به حتى عثر بمحض الصدفة على صورة قديمة جمعتهما معا فانهارت سدود وبقي صاحبنا خارج مجرى حياته العادية اياما. ربما غدا او بعد غد سيبكي صاحبنا بدر الدين مدثر بهذه الطريقة او بغيرها.

تكوين شخصية بدر الدين مدثر كان نقيض تكوين شخصية عبد الله تماما وشبيهه في الان نفسه. فهو سياسي وعملي حتى النخاع، امهر الروائيين لا يستطيع استخراج غرام رومانتيكية واحد من شخصيته او سيرة حياته.. مع ذلك فقد كانت حياته مكرسة كلية للاخرين من خلال اختياراته السياسية ـ الفكرية فلم تعرف له حياة ومتع خاصة.. حتى بعد ان تزوج وانجب بقي الحزب حياته الحقيقية الى ومية.

وبشهادة اكثر منتقديه عداء وشدة بقيت في بدر الدين نفحة من اللطف والادب في تعامله مع الناس حتى بعد ان توغل في اجواء العمل السياسي عميقا حينما اصبح البعث في السودان حزبا بحق وحقيق، ثم اعمق واعمق عندما توطد موقعه في سلطة البعث عراقيا. فالبعث، مثله في ذلك مثل احزاب وحكومات التغيير الشامل والسريع ايا كان اتجاهها، تخالط انسانيتها النابعة من مثاليتها وطوباوياتها المتعددة الأوجه قسوة تجاه من تعتبرهم اعداءها تنتهي بمرور الوقت الى استنزاف انسانيتها حتى في سلوك القيادات لا سيما اذا امتلكت سلطة الدولة وفي بلد مثل العراق بتاريخه المغمس في القسوة والعنف.

ما هي مجموعة الروافد التي شكلت شخصية بدر الدين مدثر؟ ايهما اكثر اهمية من غيره؟ من حق الجميع ممن لهم الدراية والقدرة ثم الاهتمام ان تبقى هذه الاسئلة مفتوحة لمساهماتهم. فالشخصيات العامة ليست ملكا لنفسها او اسرتها او حزبها لان اختيارها نمط حياة يؤثر في حياة الاخرين يعطي الجميع الحق بالتفكير فيها. بديهي طبعا ان الاهتمام ببدر الدين مفقود حاليا. هذا ما يفيدنا به الصمت الصامت حول الموضوع فيما خلا بضع كتابات بعثية عند الوفاة.

مسؤولية الصمت هي بالتأكيد انعكاس لغياب البعثيين عن المجال الفكري والسياسي المنفتح. بعض هذا الغياب جزء من الضعف الكبير في فعالية كافة الاحزاب، بدرجات متفاوته، تحت وطأة الغياب النوعي للقوى الحديثة بعد ان عصف بها عصر القمع السلطوي الطويل والتغييرات العشوائية للتركيبات الطبقية وبعض اسبابه بعثي بحت. البعض الاهم من البعض الاخير، حسب تقدير صاحبنا، هو خروج حزب البعث العربي الاشتراكي بمجموعه من دائرة التفاعل مع النخبة العربية المستنيرة بتماديه المتمادي في الانغلاق على نفسه منذ عقود متأثرا بتوجهات نموذجيه التطبيقين العراقي والسوري.

اما البعض الاقل اهمية فهو ان تركيبة حزب البعث العربي الاشتراكي فوق ـ القطرية اقتضت غيابا طويلا للراحل عن السودان (25 عاما) بحكم عضويته في القيادة القومية وهو غياب لم ينته بعودته للسودان عام 2003 بسبب الحالة المرضية التي داهمته حتى وفاته.

وهذا سر الصمت السوداني. تجربة البعد عن الساحة السودانية لم تعد غريبة على الساسة السودانيين بعد تجاربهم المرة استثناء مع اكثر الدكتاتوريات الثلاث التي تحكمت بالبلاد منذ استقلالها دكتاتورية، ولكن الذين يقبلون او يتفهمون المنطق البعثي وراء خصوصية تركيبة الحزب فوق ـ القطرية هذه يدركون استثنائية الاعباء الباهظة التي تحملها بدر الدين ويقبلونها دون خصم على دوره السوداني.

الاف السودانيين شاهدوه على شاشة التلفزيون محفوفا بمظاهر السلطة العراقية وفخامتها ولكن وراء ذلك كانت مسؤوليات جسام تزداد جسامة دون توقف، أي وحزب البعث يتحول باضطراد محاكيا تحول سلطة دولة راحت تتطور شموليا فتضيق فيها دائرة اتخاذ القرار. وكلما ضاقت دائرة القيادة ازدادت الاعباء كما وكيفا على القياديين القلائل. وفي حالة بدر الدين مدثر توزعت الاعباء بين الاشراف الى ومي المباشر على البعث في السودان وفي منطقة ممتدة من مصر حتى موريتانيا والمشاركة في بعض جوانب الحكم العراقي، لم يخفف منها هونا خلال السنوات الاخيرة الا ثقل المرض المتزايد. كفاءات بدر الدين ومميزات شخصيته رشحته لصعود سريع في العلاقة مع القيادة العراقية وصدام حسين شخصيا، كما في هرمية القيادة القومية للبعث حتى اصبح نائبا له كأمين عام متجاوزا بجدارة شخصيات بعثية عربية عمرها ضعف عمره.

الخلفية الاسرية

ولد بدر الدين مدثر سليمان شاهين عام 1939 وولدت معه المسؤولية وكذلك «كعب اخيل» الصحي الذي نفذت من ثغرته الضيقة يد الموت المبكر. فقد رحل الوالد الذي عمل بالتجارة بجنوب السودان في الاربعينات من عمره متأثرا بمرض السكر وضغط الدم، وهو وراثي في بعض الاحيان، تاركا ابنه البكر في العاشرة من عمره ومعه شقيقاه سليمان وتيسير وشقيقته انعام وأرملة شابة ينادونها في الاسرة «نينة». وهو لقب مستعار من اللهجة المصرية قد يكون اثرا من اثار جذور الوالد النوبية في شمال السودان الاقصى المتداخل مع النوبة المصرية او أثر التلاقح السوداني العام مع الثقافة المصرية في اجواء قلب الخرطوم القديمة التي تنتمي اليها السيدة فاطمة عمر. هذه المنطقة كانت احدى البؤر الرئيسية لولادة الحداثة السودانية اوائل القرن الماضي اطلق مخزونها المحلي التلاقح مع المصدر المصري فقدر لاهل العراقة المدينية هنا وبقية البؤر المشابهة تذوق ثمارها قبل غيرهم من اهل السودان ابتداء من الغناء الحضري كمظهر لنهوض ثقافي عام، الى السياسة الوطنية. وفي حدود ما يعرفه صاحبنا عن تاريخ الاسرة فإن هناك اشارتين واضحتين لمدى التفتح الذهني والنفسي للبيئة التي نشأت فيها السيدة فاطمة عمر. فمحمد عمر، شقيقها، كان ناشطا متميزا في الحركة الوطنيه وثورة 24 ضد الوجود البريطاني بينما يرد ذكر شقيقته في تاريخ الغناء السوداني الحديث كملهمة لواحدة من اشهر بواكير الغناء المديني. على ان مدخل فاطمة عمر الى تاريخ البلاد الذي سيبقيها في الذاكرة اجيالا واجيالا، بعد عمر مديد نرجوه لها مخلصين بين ظهرانينا، كان في تأثيرها البناء على اسرتها الخاصة. وهذه كانت توسعت لاحقا بذريتها من السيد كامل محمود: احلام وخالد وعلي بينما بقي شقيقان توأمان عند سن السادسة عندما ذهبا يلعبان في ماء المطر. كنت عندما تدخل محيط الاسرة في حي «بري اللاماب» بالخرطوم خلال الستينيات الاولى، حينما تعرف صاحبنا على بدر الدين في سياق تأسيس اولى الخلايا البعثية، تكتشف ان الابواب مشرعة نحو مجموعة اصدقاء وليس عائلة سودانية تقليدية. اسرة متماسكة تنساب العلاقات فيها بنعومة ويسر بين الكبير والصغير، الرجال والنساء.. و «العم كامل» الذي اقترنت به السيدة فاطمة بعد وفاة زوجها الاول، روح مرحة سهلة اكثر شبوبية من شبان العائلة واصدقائهم.

ليس عسيرا تصور ما كابدته هذه السيدة الجليلة من متاعب وما تنطوي عليه شخصيتها من مميزات لكي يتخلق من مجموعة اطفال تتوسع باضطراد مناخ عائلي بهذه الخصائص الايجابية. الاخوال والخالات لعبوا دورا بلا شك ولكن الام هي التي كانت في قلب الاشياء يوما بيوم وعقبة بعقبة حتى شب الاطفال عن الطوق. شب بدر الدين ربا اخر صغيرا للعائلة قبل ان يبلغ مبلغ الشباب مجسدا قيم الشعور العالي بالمسؤولية وقوة الاحتمال بما فاض عن الذاتي الى العام ومن العائلي الى الوطني والقومي مستلهما بشكل ما تراث اسرة والدته في هذا المجال ومستندا الى حس سياسي قوي، هي مجموعة المكونات التي جعلت منه الابرز بين مؤسسي حزب البعث العربي الاشتراكي في السودان. ولكن الحقيقة هي ان الاسرة بكليتها كانت وراء هذا الدور التأسيسي بشكل ما.. مناخها الدافئ كانت قيمته مضاعفة لدى ثلة البعثيين اوائل الستينيات. هؤلاء كانوا وقتها يوشكون على التجمد من صقيع برودة قصوى مصدرها مزيج العداء المكتوم والصريح او، ما هو اقسى على المعنويات، الاهمال التام من حاضنتهم المفترضة في اوساط المتعلمين. في بري اللاماب كانوا يجدون الحاضنة البديلة. يتأنسون ببعضهم البعض من وحشة الصقيعة خارجها في وسط يرحب بهم كأشخاص وكبعثيين وفي قلبه قلب ام لم تكن غافلة عن المخاطر التي يتعرض لها بكرها ولكن ثقتها فيه وقد رأته ينضج قبل يومه رجلا مسؤولا، وتكوينها الشخصي وإرث الاسرة كان يجعلها ركيزة الحاضنة. المنزل كان مركزا بعثيا مكشوفا يمارس منه ايضا نشاط سياسي معاد لنظام نوفمبر 58 الدكتاتوري، والقادم الاعظم من الاذى لبدر الدين كانت نذره واضحة في الاعتقالات المتكررة التي يتعرض لها بينما تنجذب الى دائرة قياديته الطبيعية والمكتسبة شقيقته انعام ثم شقيقة الاصغر تيسير فيما بعد. بهذا المعنى كانت الاسرة حقا اسرة البعث والام امه. اسر سودانية كثيرة وامهات كثر تحملن ضريبة العمل العام من خلال البعث بعد ذلك بسنوات وسنوات عندما نما الحزب وانتشر وبعضهم ممن فقدوا احباءهم دفعوا ثمنا اغلى، ولكن بمقياس فضل الريادة وغرس البذور الاولى تظل فاطمة عمر واسرة مدثر ـ كامل هي مستحقة التوصيف.

بدر البعث

جادل صاحبنا ويجادل بأن مستحق صفة المؤسس الاول للحزب هو بدر الدين مدثر بما لا ينتقص من ادوار الاخرين ولا سيما شخصية مثل شوقي ملاسي كان لها حضورها المميز نسبيا بالمقارنة للاخرين ممن قدر لهم ان يكونوا ضمن الصيغة البعثية السودانية الاولى بعد مرحلة الارهاصات منذ منتصف الخمسينات سواء بفعل فعلهم او مجرد الصدفة.

احزاب المدى التاريخي تنشأ عادة لمقابلة حاجة مجتمعية تاريخية ولكن التوقيت يبقى رهينا بظهور شخصية ذات خصائص استثنائية في تلافيف تلك العلاقة الغامضة والمعقدة بين التاريخ الذي يصنع الافراد والافراد الذين يصنعون التاريخ. كذلك فإن التأسيس في الحركات التي تمر بمنعطفات هائلة لظروف خاصة بها او الواقع الذي تتأثر به له اكثر من مرحلة وتاليا اكثر من مؤسس. في سياق هذه التحفظات على طبيعة الدورالفردي، حدوده وطبيعته، تنهض الصور التالية في سيرة بدر الدين مدثر كما يرسمها صاحبنا:

الصورة الاولى:

تحت شعر رأس لافت بغزارته والشارب الكث تطل عليك ملامح وجه مريح بتناغم ملامحه مركبا على جسد متناقض بين ترهله وحركته الدائبة حتى ان احد اقربائه قال لاهله مرة ان ابنهم مثل العفريت تجده في كل شوارع الخرطوم. هكذا وقع نظر صاحبنا على بدر الدين طالب الحقوق بجامعة القاهرة فرع الخرطوم لاول مرة، أي قبل ما ينوف عن العشرين عاما من سياسة الترشيق التي طالت كبار المسؤولين في عراق صدام اوائل الثمانينيات واجراءات مكافحة امراض ضغط الدم والسكر وادت الى تخفيض وزنه. غير ان الوقت لم يطل بصاحبنا ليهتدي الى ان سر اجتماع الترهل والحركة في شخصية واحدة يعود الى ان مركزا ما في المخ كان يرسل اشارة واحدة لا غير الى الجسد فينزاح كعقبة امام الحركة، هي: لا بد من انجاح التجربة البعثية.

تلك، بعبارة اخرى، كانت احدى امارات عديدة لقوة الارادة في تكوين شخصية بدر الدين مدثر فيما خص السلوك الشخصي. وامارة ثانية: السياسي السوداني الرشيد الطاهر، وكانا في احد الاعتقالات المتكررة لبدر الدين يتقاسمان عنبرا في سجن كوبر مع اخرين، قال مازحا ان «فلان له شهية للاكل ولكن بدر الدين له شهوة». وهذه حقيقة. فآخر ما فعله بدر الدين قبل ان يسلم نفسه لقبضة الدكتاتورية الثانية (69ـ85) وربما للمشنقة في تموز (يوليو) 1971 كان تناول وجبة دسمة. في ذلك التاريخ انفلتت مجزرة اودت بقيادة الحزب الشيوعي اثر انقلاب فاشل بينما بعض الاشارات كانت تضع البعث في دائرة الاتهام على ضآلة حجمه وقتها حتى انه لم يكن قادرا على اخفاء بدر الدين.

مع ذلك فإن صوم رمضان كان عادة متأصلة فيه منذ الصغر حتى وفاته، مع ان الافطار او الصوم المتقطع كان امرا عاديا في الاوساط المدينيه الشبابية آنذاك. وفي زمن ستيني كان عامرا بقيم الدين في المعاملات الخاصة والعامة، قبل ان يطرده الاسلاميون من القلوب الى الالسنة والمظاهر، كان ارتياد الازقة الحمراء ومقاربة المسكرات من قبل معظم الشباب امرا عاديا بينما قائمة (رذائل) بدر الدين الشاب العازب كانت تشمل الآتي: زجاجة جعة واحدة من حين لاخر، ارتياد السينما، التدخين و «سفة صاعوت» (تبغ محلي يوضع تحت الشفة السفلي). ومع الزمن القصير لم يبق من هذه القائمة الا التدخين.

الصورة الثانية

يذكر صاحبنا جيدا، وكان خلال فترة طويلة في بداية البدايات عضوا في القيادة ومسؤولا عنها احيانا، كيف كانت شرارة مبادرة من بدر الدين مدثر هي التي تحيي موات جمرات تكاد تندثر. الواقع السوداني، لا سيما في اوساط المتعلمين كان ولا يزال اكثر ازورارا عن صفة العربي بالمقارنة لواقع اقطار الوطن العربي الاخرى. اضافة لذلك فإن البعث في المشرق كان آنئذ 60ـ63 محاصرا حد الاختناق بسطوة الناصرية الشعبوية وببداية سلسلة من التصدعات الداخلية نتيجة صراعه معها. من هنا كانت البدايات متعثرة تعثر احتضار في بعض الاحيان. يبلغ بنا الى أس قاعا مظلما فنبقى شهورا دون اجتماع واحد ويكون بدر الدين غالبا هو الذي يكسر حالة الاستسلام للعقم هذه.

حتى عندما استوى العمل على وتيرة استقرار ما كانت فكرة (مجنونة) من بدر الدين نقطة اختراق اوصل بعث السودان فيما بعد الى عتبة جماهيرية ما في غرب السودان لم يحققها في اي منطقة اخرى. مثل كافة القوى السياسية السودانية، كبيرها وصغيرها، قديمها وجديدها، كان افراد المجموعات البعثية الاولى يدعون وصلا بليلى الثورة المهدية ضد الحكم التركي في القرن التاسع عشر. بيد ان سدا منيعا متعدد الطبقات في عقليتهم ونفسيتهم كان يمنع أي تفكير جدي بإمكانية التعامل مع قبائل غرب البلاد التي ارتبطت منذ اربعينات القرن اللاحق بحزب الامة وطائفة الانصار، منعا مطلقا وباتا. مزيج من الانتماء الاسري للمعسكر الاخر، طائفة الختمية والحزب الاتحادي (مع مصر)، والنشأة المدينية زائدا قلة المعرفة بالولاءات السياسية للقبائل البعيدة في بلد شاسع المساحة كان يلخص الغرب في مخيلة اوائل البعثيين السودانيين بحزب الامة المعادي لمصر والعروبة وفي الانصاري المخيف حامل الرمح جندي جيش الرجعية الريفي.

وعندما طفق بدر الدين في مخاطباته المنابرية خلال فترة الديموقراطية الثانية (64ـ69) يتجاوز الاشادة الروتينية العادية بالثورة المهدية الى الحديث عن جماهيرها بنغمة ايجابية بدا الامر غريبا على كافة افراد المجموعة، وفي افضل الاحوال عدوه ضربا من التشويش على حزب الامة، عدونا الأوحد وقتها. لعل تفكير بدر الدين الواعي نفسه لم يذهب في مطالعه ابعد من هذا المدى ولكن مداومته على الكلام حول الموضوع كان بالتأكيد ينطلق من حدس ما بأن للمسألة بعدا اعمق وارحب باعتبار ان هذه القبائل نفسها مستودع عروبة خام. بعض ملامح هذا البعد راحت تتضح رويدا رويدا تطويرا للفكرة تحت ضغط اضطراره للاهتمام بكيفية تنويع طريقة طرحه لها منعا للملل للتكرار.

وهكذا هي الملكة القيادية: لا يشترط ان تكون عبقرية خارقة تنتج الافكار متكاملة من اول وهلة وانما هي دفع نحو آفاق غير مطروقة بمزيج من الخيال والواقعية مضبوط المقادير لا يتوفر بنفس القدر لدى الاخرين ويؤتي اكله بعنصر مكمل للملكة القيادية وهو قدرة التأثير في من حوله حتى دون تعمد.

في هذا السياق شرع صاحبنا، وكان موكلا الى ه الجانب الثقافي، بمحاولات تقعيد للفكرة افضت في الثمانينات الى كتاب «الثورة المهدية مشروع رؤية جديدة» متلاقحة مع مجهودات وبحوث محمد على جادين ومحمد عتيق وعمر مهاجر وغيرهم وهي اول دراسة لهذا الحدث التكويني للسودان المعاصر من وجهة نظر قومية. ومن تلك الفكرة (المجنونة) ايضا تواله بعد ذلك عشرات الناشطين البعثيين من ابناء غرب السودان ونشأت مراكز اساسية للبعث في مدن المنطقه الابيض والدلنج وام روابة وحتى في مضارب قبائل المسيرية والرزيقات.

بدر الغياب والتاريخ

في سودان الى وم. سودان القسوة المرة المفروضة على التوادد السوداني التقليدي بضغط ظروف الانهيار المعيشي والحروب الاهلية يعز على السودانيين الاعتراف بأن البال ، وبالتالي الوقت، لم يعد يتسع لمن يطول مرضهم مهما كانت رغبتنا عكس ذلك. تراكمت علينا فجائع الموت المبكر والامراض المقعدة لاقرب الاقربين واحب الاحباء فبقي الاحساس بالصدمة والمأساة مقصورا على اولئك الذين يعيشون هذه التجربة لاول مرة.

اوضاع صاحبنا الشخصية الاستثنائية كانت تتيح له البقاء مع بدر الدين لفترات تطول احيانا بعد عودته للسودان عام 2003 صورة باهتة لبدر الدين الذي غادره منذ السبعينات بدون انقطاع سوي فترة قصيره خلال الديموقراطية الثالثه (85ـ89). يزداد احساسك بالفجيعة عندما كنت تجلس الى ه فيعود اليك للحظات خاطفة كما عرفته قبل ان يهجم على ملكاته العقلية تحالف السكر والضغط والكولسترول بضربة مؤثرة بعد انهيار مصدات العناية الطبية مع انهيار النظام العراقي اثر بداية الحرب.

في لحظات معينة يصفو ذهنه ويعود الى مخزون الذاكرة القديمة المشتركة بينكما مستخرجا منها ما لا تسعفك به حتى ذاكرتك المعافاة. الذهن الذي بات مشوشا مضطربا يتفجر بتفاصيل عن اول مؤتمر للفرقة (الشكل التنظيمي في البعث بعد الخلايا) ومحاولات النقد الذاتي الساذجة التي كادت تتحول الى ملاسنات شخصية بين فلان وفلان. تكاد تبكي فرحا وتحاول جاهدا الامساك بهذه اللحظة المضيئة ولكنها تفلت منك فيعود الذهن الى متاهات لا تعرف طريقك فيها.

يطلب منك الحصول على ممنوعات مهلكة في مثل حالته كالسجائر. يخالف كافة البديهيات والنصائح الطبية لمن يعانون مثله من كوكتيل امراض قاتل صاعق تفجيره عدم الانضباط التام في المأكل والمشرب قبل العقاقير وبعدها. كأنه كان يستعجل الرحيل ليحتفظ بصورته في الاذهان بهية عنفوانية او يمارس نوعا من الانسحاب اللاشعوري كرد فعل للانهيار المريع لعالمه البعثي (العراقي). اخرون مثله ظلوا على ولائهم لحزب البعث كما اعادت قيادة صدام صياغته ويسعون لاعادة بناء هذا العالم بحجارة (المقاومة)، بعكس صاحبنا واخرين ممن يعتقدون بأن الافضل استخدام حجارة الديموقراطية، لماذا لم يعد معهم بدر الدين ليبقى كما عرفناه حتى ولو بعدت بيننا المسافات السياسية؟

مهما كانت دوافع المحبة والتقدير الشخصين والوفاء لذكريات الشباب يتعذر الهروب من فكرة ان رمزية بدر الدين مدثر ظلت فاعلة في مرضه ايضا كإشارة لمرحلة يتفق جميع البعثيين السودانيين على انها انتهت وان اختلفوا في اسباب ذلك بين المسببات الداخلية والخارجية. مرحلة التأسيس والصعود كان بدر الدين رمزها الغني بلا منازع وأبت اقدار المرض الا ان يكون ايضا رمزا لمرحلة الانحسار فماذا يبقى منه للتاريخ: هل تجب (ضم الجيم وتشديد الباء) حقيقة كونه، حسب ما يعتقد صاحبنا ومن يشاركونه آراءه، ظل جزءا فاعلا من التراجع المضطرد للتجربة البعثية ما قدمه في المرحلة السابقة؟ وفق هذه الرؤيه اهدرت قيادة صدام اخر فرصة لتعديل المسار نحو الافق الديموقراطي بعد نهاية حرب الثماني سنوات مع ايران عام 1988. وجاء غزو الكويت اوائل العقد التاسع ليكشف عن التكرس النهائي لوجهة الانغلاق ضد الاخر العراقي السياسي ـ الفكري مدشنا تحول الحزب الى تركيبة عائلية ـ عشائرية تنافس الاسلاميين في الخطاب الديني. لماذا بقي بدر الدين مدثر متمسكا بقيادة صدام؟ هل هي القناعة ام الوفاء الشخصي لصدام حسين؟ هل خالطت انسانيته ومبدأيته شبهة الحرص على الاوضاع السلطوية المريحة بأكثر من وجه، على متاعبها واعبائها؟ هل .. وهل ... وهل؟ هذه اسئلة لا يمكن لصاحبنا الا ان يطرحها على نفسه لانها مطروحة من قبل الكثيرين بعثيين وغير بعثيين يتحدثون بلسان تاريخ سيكتب يوما ما بموضوعية وتوازن. يوم يعود فيه البعث وبدر الدين الى دائرة الاهتمام كجزء من عودة التطور السياسي العربي والسوداني الى مجراه الطبيعي.

وحتى لو لم تنجح محاولة احياء بعث السودان الجارية الان على مسارين احدهما من داخل الصيغة السابقة والاخر من خارجها، فإن التفكير الموضوعي لا يمكنه تجاهل المساحة البعثية في تاريخ السودان المعاصر لا سيما خلال الثمانينيات الاخيرة عندما تصدر حركة المعارضة ضد دكتاتورية جعفر نميري حتى سقوطها عام 85. ان اعظم تكريم لشخصية ما هو ان تبقى مصدر الهام للاجيال اللاحقة.

وأهم شرط لذلك ان تقدم بصورة واقعية بشرية فيها السلبي والايجابي وليس كأبطال الاساطير المجبولين من طينة الايجاب المطلق الذين درجنا على اختراعهم منذ الزمن الناصري. بهذا وحده يمكن للبشر الاخرين القادمين مستقبلا ان يتعرفوا على انفسهم فيها ويتأثروا بايجابياتها.

في نعي بدر الدين مدثر ينعي صاحبنا نفسه شخصا وتجربة بعثية.

جزء من أي انسان يموت عندما يفقد عزيزا عليه خاصة في شطر العمر الاخير عندما يصبح الماضي وقاطنوه، اشخاصا وذكريات، اعز واجمل مما كانوا عليه في مرحلة سابقة. اما التجربة السياسية فرغم ان اسهام صاحبنا فيها لا يساوي قطرة في محيط بالمقارنة لاسهام بدر الدين مدثر الا ان النزف العاطفي لنهايتها في مسارها القديم يبقى موجودا ومحزنا. فمع ما اعتبره صاحبنا اخطاء مزمنة فيه، مما ادى لانسحابه منه، كانت هناك بطولات وصداقات ونوايا حسنة.

بتاريخ 15 شباط (فبراير) 1999 كتب صاحبنا رسالة مسهبة الى بدر الدين مدثر شرح فيها تفكيره حول ضرورات تغيير المسار جاء فيها بالحرف: «فقد ظللت امام الاخرين اقول دائما، عندما تأتي المناسبة، انه لولا بدر الدين مدثر لتأخر نشوء الحزب في السودان عشرة اعوام على الاقل». وهي قناعة ستظل باقية دوما لديه.

---

* كاتب وباحث سوداني